

(تحديد الصلة بين الله والعالم) برهان الحدوث انموذجاً

أ. سعيد بن سلطان الحراسي¹ أ. عبد الرحمن بن جابر السعدي²

طالب دراسات عليا - جامعة السلطان قابوس - كلية التربية - قسم العلوم الإسلامية

أستاذ تربية إسلامية - وزارة التربية والتعليم - سلطنة عمان

استلام البحث: 25-06-2024 مراجعة البحث: 22-08-2024 قبول البحث: 26-08-2024

ملخص

إن من أهم براهين التوحيد برهان الحدوث، اهتم به المتكلمون اهتماماً بالغاً؛ فقد جعلوه معتمدتهم في إثبات الله، وتقوم حقيقته عندهم على مقدمتين ضروريتين، هما: إثبات حدوث العالم، والثاني: إثبات كون المحدث لا بد له من محدث، وخلصوا من هذا إلى أن العالم لا بد له من محدث أول مختار بالضرورة، وهو الله - عز وجل - على أن مما يزيد قوة هذا البرهان إشارة القرآن الكريم والسنة النبوية إليه، وتطبيق العلماء المتقدمين والمتأخرين له في مؤلفاتهم ومصنفاتهم، وقع الخلاف في تحديد وجهات النظر المختلفة في تحديد الصلة بين الله والعالم.

الكلمات المفتاحية: الحدوث - الحركة - السببية - القدم - الزمان - المكان

Abstract:

One of the most important proofs of monotheism is the proof of occurrence, which theologians paid great attention to. Its truth, according to them, is based on two necessary premises, which are: proving the occurrence of the world, and the second: proving that the occurrence must have a causer. They concluded from this that the world must have a first, chosen creator by necessity, and that is God – the Almighty and Majestic– and what increases the strength of this proof is the reference to it in the Holy Qur'an and the Prophetic Sunnah, and the application of it by early and later scholars in their writings and works. There was disagreement in determining the different points of view in determining the connection between God and the world.

Keywords: (occurrence –motion –ausality/antiquity/time/place

مقدمة:

إن من أعظم أسس العقيدة في علم التوحيد إثبات وجود الله تعالى؛ وذلك لأن بقية المسائل تنبني عليها، فهي كالفرع بالنسبة للأصل، فمن لم يثبت عنده وجود الحق - جل وعلا - لن تثبت عنده أي مسألة من مسائل العقائد؛ لأن كل مسائل العقيدة مبنية على إثبات وجود الله.

وعليه؛ تعد مسألة (برهان الحدوث) من المسائل التي كثر فيها الكلام بين الفلاسفة والمتكلمين؛ وذلك لأمرين هما: تعلق هذا البرهان بوجود الخالق، فكانت له مكانة عالية ومنزلة رفيعة، ولا أدل على ذلك من تعرض كتب علم الكلام له شرحاً وتقصيلاً وبياناً وتوضيحاً وتحريراً..... وتعلق هذا البرهان وارتباطه بمناقشات فلسفية حول قدم العالم أو حدوثه، وقد ظهر هذا جلياً في الحوارات الفلسفية بين الإمام الغزالي في "تهافت الفلاسفة"، وابن رشد في "تهافت التهافت"، بحيث شغلت هذه المسألة كثيراً من علماء الكلام والفلاسفة من المسلمين ومن غير المسلمين إلى يومنا هذا، وقد كان لمتكلمي الإباضية نصيبٌ من القول في هذه المسألة؛ فقد رجحوا الحدوث على القدم، وأثبتوا الأولوية لله تعالى بناءً على نصوص قرآنية قطعية الدلالة والثبوت تتفق مع البراهين العقلية، فما عدا الله حادث مخلوق، وممن تحدّث في هذه المسألة الشيخ الجبّطالي في شرحه للنونية التي قمت بتحقيق بعض أبياتها، ولكنه لم يتوسع إلا أنه أفاد فيها وأجاد، ومن أجل هذا قمت ببحث هذا البرهان من براهين وجود الله تعالى، وما دار من مناقشات وردود حول الحدوث والقدم، وبيان الاتجاهات والنظريات في صلة الخالق بالخلق

مشكلة الدراسة:

وعليه جاءت الورقة البحثية لتجيب عن:

1. ما تعريف برهان الحدوث لغة واصطلاحاً؟
2. ما هي وجهات النظر المختلفة في تحديد الصلة بين الله والعالم؟
3. ما هو برهان الحدوث، وكيف نبين صحة مقدماته؟

أهداف الدراسة:

1. بيان تعريف برهان الحدوث لغة واصطلاحاً.
2. مناقشة وجهات النظر المختلفة في تحديد الصلة بين الله والعالم.
3. بيان برهان الحدوث، وبيان صحة مقدماته.

المناهج المتبعة:

1. المنهج الاستقرائي: لجمع المادة العلمية المتعلقة ببرهان الحدوث.
2. المنهج التحليلي: لتحليل البرهان، وتحديد مقدماته..

وقد تكونت هذه الدراسة المبسطة من أربعة مباحث، تشتمل على عدة مطالب مهمة، وذلك على النحو التالي:

- المبحث الأول: التعريف اللغوي والاصطلاحي للحدوث.

- المطلب الأول: التعريف اللغوي.
- المطلب الثاني: التعريف الاصطلاحي.
- المبحث الثاني: وجهات النظر المختلفة في تحديد الصلة بين الله والعالم.
 - المطلب الأول: القدم الذاتي والزمني.
 - المطلب الثاني: القدم الزمني والحدوث الذاتي.
 - المطلب الثالث: الحدوث الذاتي والزمني.
 - المطلب الرابع: الفيض والصدور
- المبحث الثالث: شرح برهان الحدوث، وبيان صحة مقدماته.
 - المطلب الأول: شرح الدليل.
 - المطلب الثاني: بيان مقدماته، وما فيها من مناقشات فلسفية عقلية.

المقدمة الأولى: العالم حادث، وبرهانها وجود الحوادث.

أولاً: معنى المقدمة وبرهانها.

ثانياً: أدلة من نازع في حدوث العالم والرد عليه، إثباتاً لقدمه.

الدليل الأول: استحالة صدور الحادث عن القديم، والرد عليه.

 - الدليل الثاني: قدم الزمان والحركة، والرد عليه.
 - الدليل الثالث: قدم الإمكان، والرد عليه.
 - المقدمة الثانية: كل حادث لا بد له من محدث.
 - أولاً: معنى المقدمة، وارتباطها بمبدأ السببية.
- المبحث الرابع: الأدلة والشواهد العلمية على حدوث العالم.
 - أولاً: قانون الديناميك الثاني.
 - ثانياً: نظرية الانفجار العظيم.

المبحث الأول: التعريف اللغوي والاصطلاحي للحدث.

المطلب الأول: التعريف اللغوي

كثير من التعريفات اللغوية تُعرّف الحدث بضده وهو القدم، وأخرى تعرفه: بكون الشيء بعد أن لم يكن، وقد نص على المعنى الأول ابن دريد¹ في جمهرة اللغة بقوله: "والقديم خلاف الحديث، والله - عز وجل - القديم الذي لم يزل"². وكذا في "لسان العرب" لابن منظور ما نصه: "والقدم: نقيض الحدث، قدم يُقدم قديماً وقداماً وتقدم، وهو قديم"³. وجاء في "تاج العروس" للزبيدي: "(حدث) الشيء يَحْدُثُ (حُدُوثاً)، بالصَّـمِّ، (وَحْدَانَةً) بِالْفَتْحِ: (نَقِيضُ قَدَمٍ)، والحديث: نَقِيضُ الْقَدِيمِ، والْحُدُوثُ: نَقِيضُ الْقَدَمَةِ"⁴، أما المعنى الثاني أشار الرازي في "مختار الصحاح" تحت مادة [حدث]: "و(الْحُدُوثُ) بِالصَّـمِّ كَوْنُ الشَّيْءِ بَعْدَ أَنْ لَمْ يَكُنْ وَبَابُهُ دَخَلَ (أَحْدَثَهُ) اللَّهُ (فَحَدَّثَ)"⁵.

نأخذ - مما تقدم - أن الحدث في اللغة يأتي على معنيين، الأول نقيض الحدث وهو القدم، والثاني كون الشيء بعد أن لم يكن، أي خروج الشيء من العدم إلى الوجود، وهما معنيان متقاربان من جهة المعنى.

المطلب الثاني: التعريف الاصطلاحي

يُعبّر المتكلمون عن الحدث بما كان وجوده مسبقاً بالعدم أي لم يكن ثم كان، وفي ذلك يقول الإمام الغزالي في المستصفى: "كَمَا يُقَالُ فِي حَدِّ الْحَادِثِ إِنَّهُ الْمَوْجُودُ بَعْدَ الْعَدَمِ أَوْ الْكَائِنُ بَعْدَ أَنْ لَمْ يَكُنْ أَوْ الْمَوْجُودُ الْمُسَبُّوقُ بَعْدَ أَوْ الْمَوْجُودُ عَنْ عَدَمٍ، فَهَذِهِ الْعِبَارَاتُ لَا تُؤَدِّي إِلَّا مَعْنَى وَاحِدًا فَإِنَّهَا فِي حُكْمِ الْمُتَرَادِفَةِ"⁶، ويذكر نفس هذا المعنى في كتابه "محك النظر" فيقول: "الحادث هو الموجود بعد العدم أو الكائن بعد أن لم يكن أو الموجود أو المسبوق بعدم أو الموجود عن عدم"⁷، وكذا قوله في "معيار العلم" في فن المنطق: "ولا يعلم الحادث إلا من علم وجوداً مسبقاً بعدم، ولا يعلم الوجود المسبوق بعدم من لا يعلم العدم والوجود والتقدم والتأخر"⁸. وممن أشار

¹ محمد بن الحسن بن دريد الأزدي، من أزد عمان من قحطان، أبو بكر، ت: ٣٢١ هـ، من أئمة اللغة والأدب. كانوا يقولون: ابن دريد أشعر العلماء وأعلم الشعراء. انظر: إرشاد الأريب، ج6، ص483. ووفيات الأعيان، ج1، ص497.

² (الأزدي، ابن دريد؛ محمد بن الحسن: **جمهرة اللغة**، باب الدال والظاف مع ما بعدهما من الحروف، مادة قدم، ج2، ص676، تحقيق: رمزي كنير بعلبكي، دار العلم للملايين، بيروت، ط1، 1987م.

³ (ابن منظور، محمد بن مكرم بن علي، أبو الفضل، جمال الدين ابن منظور الأنصاري الرويفي الإفريقي (ت ٧١١هـ)، **لسان العرب**، مادة قدم، ج12، ص465، ط3، 1414هـ، دار صادر - بيروت.

⁴ (الزبيدي، محمد مرتضى الحسيني الزبيدي، **تاج العروس من جواهر القاموس**، فصل ألحاء المُهْمَلَةِ مَعَ التَّاءِ الْمُثَلَّثَةِ، ج5، ص205، تحقيق: جماعة من المختصين، دار الهداية، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب بدولة الكويت، د.ط، د.ت.

⁵ (الرازي، زين الدين أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الحنفي الرازي (ت: ٦٦٦هـ)، **مختار الصحاح**، تج: يوسف الشيخ محمد، ص68، ط5، ١٤٢٠هـ / ١٩٩٩م، المكتبة العصرية - الدار النموذجية، بيروت - صيدا

⁶ (الغزالي، أبو حامد محمد بن محمد الغزالي الطوسي (ت ٥٠٥هـ)، **المستصفى**، تج: محمد عبد السلام عبد الشافي، ص24، دار الكتب العلمية، ط1، 1993م.

⁷ (الغزالي، أبو حامد محمد بن محمد الغزالي الطوسي (ت ٥٠٥هـ)، **محك النظر في المنطق**، تج: أحمد فريد المزني، ص270، ب.ط، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان.

⁸ (الغزالي، أبو حامد محمد بن محمد الغزالي الطوسي (ت ٥٠٥هـ)، **معيار العلم في فن المنطق**، تج: الدكتور سليمان دنيا، ص232، د.ط، دار المعارف، مصر.

لهذا المعنى القرطبي بقوله: "... ولا تتوصل إلى ذلك حتى تعلم حدوث العالم وأنه موجود بعد عدم وتعلم أن له محدثاً وأن محدثه موجود..."⁹.

وعليه؛ نجد بأن الناظر في تعاريف أهل اللغة والاصطلاح يصل إلى أن مفهوم الحدوث عندهم يقوم على نفس المعاني التي تقيد الحدوث بمعنى الخلق والايجاد أو الوجود من عدم أي الشي الذي لم يكن ثم كان.

المبحث الثاني: وجهات النظر المختلفة في تحديد الصلة بين الله والعالم.

من المشكلات الفلسفية تحديد صلة الخالق بال مخلوق، وذلك بين من ينكر أصلاً وجود الخالق، وبين من يدعي وجوده ولكن يسلبه أهم صفة من صفاته وهي صفة الخالق، وبين من يؤله الكون باعتبار أن الطبيعة أوجدت نفسها بنفسها وغير ذلك من النظريات الفلسفية، ومنها ما يلي:

المطلب الأول: القدم الذاتي والزمني.

يرى أصحاب هذا الاتجاه أن العالم المادي أزلي أبدي بجواهره وأعراضه، فهم لا يؤمنون بالخالق، وقالوا لا شيء يكون من عدم، وإنما تسير العالم قوانين ذاتية آلية، وهذا هو الاتجاه المادي الصرف... يقول الامام الغزالي في هؤلاء: "الصف الأول: الدهريون، وهم طائفة من الأقدمين جحدوا الصانع المدبر العالم القادر وزعموا أن العالم لم يزل موجوداً، كذلك بنفسه وبلا صانع ولم يزل الحيوان من النطفة، والنطفة من الحيوان وكذلك يكون أبداً، وهؤلاء هم الزناقة"¹⁰.

المطلب الثاني: القدم الزمني والحدوث الذاتي.

يرى أتباع هذا الاتجاه؛ أن العالم قديم بالزمان دون الذات، وأن المادة الأولى التي نشأ منها الكون، لم تكن من شيء، ولا تقدمه زمان، وإنما وجدت هكذا من تلقاء نفسها، وهم لا يرون في القول بقدم مادة العالم إنكاراً للخلق ولا تعريضاً لوجود الله للوجود والانكار، وأشيع هذا الاتجاه يعرفون بـ: "القاتلون بالقدم الزمني" أو "الخلق المتصل" أو "الحدوث الذاتي"، والامام الغزالي ينسبه إلى جمهور الفلاسفة فيقول: "اختلفت الفلاسفة في قدم العالم، فالذي استقر عليه جماهيرهم من المتقدمين والمتأخرين القول بقدمه، وأنه لم يزل موجوداً مع الله

⁹ (القرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي شمس الدين القرطبي (ت ٦٧١هـ)، الإعلام بما في دين النصارى من الفساد والأوهام وإظهار محاسن الإسلام، تح: د. أحمد حجازي السقا، ص185، ب.ط، دار التراث العربي - القاهرة.

¹⁰ (الغزالي، أبو حامد محمد بن محمد الغزالي الطوسي (ت ٥٠٥هـ)، المنقذ من الضلال، ص133، دار الكتب الحديثة، مصر.

تعالى، ومعلولاً له ومساوقاً له غير متأخر عنه بالزمان مساوقة للمعلول للعلة ومساوقة للنور للشمس، وأن تقدم الباري عليه كتقدم العلة على المعلول، وهو تقدم بالذات والرتبة لا بالزمان¹¹.

على أن القول يقدم العالم إنما استحدثه أرسطو من فلاسفة اليونان، أما من كان قبله، فكانوا يرون أنه حادث، يقول الشهرستاني: "إن القول في قدم العالم وأزلية الحركات بعد إثبات الصانع، والقول بالعلة الأولى، إنما شُهر بعد أرسطوطاليس، لأنه خالف القدماء صريحاً، وأبدع هذه المقالة على قياسات ظنها حجة وبرهاناً، فنسج على منواله من كان من تلامذته وصرحوا القول فيه... وإلا فالقدماء إنما أيدوا فيه ما نقلناه"¹²

المطلب الثالث: الحدوث الذاتي والزمني.

يمثل هذا الاتجاه علماء الكلام في الأديان السماوية الثلاث، فهم يعتقدون أن الله تعالى خلق العالم من العدم، فالصلة بين الباري والعالم صلة بين السبب والنتيجة، فالله سابق للكون وهو خالقه، وهو سبحانه من أوجده بعد أن لم يكن شيئاً مذكوراً، وهذا مذهب أهل الاختراع والابداع القائلين بالإيجاد المنفصل وبخلق من العدم، ولذلك فقد تجرد المتكلمون للرد على الفلاسفة في قولهم بأزلية العالم أو قدمه، وذلك من حيث إن المتكلمين قد بنوا دليلهم على وجود الصانع على مقدمة الحدوث، فذهبوا إلى أن العالم - وهو حادث - لا بد له من محدث، بالاستناد إلى ما يعرف عندهم بمبدأ الترجيح أو التخصيص، وهذا المحدث هو الله، ومن جهة ثانية فقد ذهبوا إلى أن إنكار حدوث العالم يلزم عنه أنه لا صانع له.

المطلب الرابع: الفيض والصدور

يرى اتباع هذا الاتجاه أن الخلق والابداع، عبارة عن اختراع الصور وإبداعها (دون المواد)، وإثباتها في الهيولى من قبل واهب الصور أو العقل الفعال... فالموجودات الجزئية - في نظرهم - تصدر عن الأول (الله) ضرورة، وذلك بتوسط سلسلة من المبادئ المفارقة للمادة تعرف بالعقول المفارقة.

هذا؛ وقد صور ابن سينا الصدور على الوجه الآتي: "إن الموجود الأول لا يحتوي على نوع من الكثرة، أما المعلول الأول الذي يصدر عنه ففيه: ثنائية وتثليث. أما الثنائية: فهي أنه واجب بسبب غيره، ويمكن في ذاته. أما التثليث: فهو أنه له ثلاثة أنواع من الإدراك، فهو إما أن يدرك الموجود الأول أو ذاته على أنها ممكنة بحسب ماهيتها، أو ذاته على أنها واجبة بسبب الله. فإذا أدرك الموجود

¹¹ الغزالي، أبو حامد محمد بن محمد الغزالي الطوسي (ت ٥٠٥هـ)، تهافت الفلاسفة، تح: د. سليمان دنيا، ص 88، ط 6، دار المعارف، القاهرة - مصر.

¹² الشهرستاني، أبو الفتح محمد بن عبد الكريم بن أبي بكر أحمد الشهرستاني (ت ٥٤٨هـ)، الملل والنحل، ج 2، ص 208، مؤسسة الحلبي.

الأول: فاض عنه عقل ثان، وإذا أدرك نفسه على أنه واجب الوجود بغيره، فاضت عنه نفس الفلك الأقصى، أي السماء

التاسعة.....¹³

لقد أراد فلاسفة الفيض تجاوز الصعوبة التي تلزم - في رأيهم - عن صدور الكثير (العالم المادي بجزئياته) عن الواحد (الله)، صدورا مباشرا دون أن تعترى ذات الواحد الكثرة والتغير، وفكرة الخلق بهذه الصورة قال بها: ابن سينا والفارابي، وقد رد الامام الغزالي على فكرة الصدور ووصفها بالشناعة، ووصف تعمقهم بالاغترار بالعقل وسوء الظن والهوس.¹⁴

المبحث الثالث: شرح برهان الحدوث، وبيان صحة مقدماته

لابد من التنبيه على أن الأدلة التي أقامها المؤمنون مع تنوعها على إثبات وجود الله، هي في الوقت نفسه مختلفة فيما بينها في القوة والضعف وفي الصحة والبطلان، فبعضها قوي في دلالاته متماسك في مقدماته وطرائقه، وبعضها ضعيف هزيل لا يصمد أمام النقد والتمحيص، ولا بد له من تعديلات حتى يستقيم ويستوي على سوقه، وبعضها ظاهر البطلان ولا يمكن إصلاحه على كل حال. وعليه فلا بد من معرفة خطورة الاستدلال بالأدلة الخاطئة أو الضعيفة أو غير المحررة، فالحق لا يحتاج إلى سيل جارف من الأدلة بقدر ما يحتاج إلى تحقق قوة الدليل وتماسكه وانضباطه؛ فدليل واحد صحيح المقدمات سليم عن المعارضة خير من وابل من الأدلة وهي ركيكة معناها ومبناها.

سأقتصر في هذا المقام على استعراض دليل الحدوث أو برهان الحدوث شرحاً وبرهنةً، فهو من أقوى الأدلة الدالة على وجود الله وأجلها، ومن أكثر ما يذكره القرآن ويشير إليه كما سيأتي... ومن خلال متابعة حقيقة دليل الحدوث يتبين أن المتكلمين وضعوا له مقدمتين أساسيتين¹⁵ ونتيجة لازمة عنهما حال التسليم بصدقهما، وهي على النحو الآتي:

المقدمة الأولى: العالم حادث من العدم وليس قديماً. والمقدمة الثانية: الحادث لا بد له من مُحدث. النتيجة الضرورية: العالم لا بد له من مُحدث.

وسوف أقوم باستعراض الدليل وبيان صورته وتركيبته ومستنده النقلية والعقلية والعلمي ووجه دلالاته، ثم النظر في البرهان على صحة مقدماته الضرورية، وذلك بحسب تقسيمات الدراسة فيما يأتي.

¹³ ابن سينا، أبو علي الحسين بن عبد الله بن سينا (ت: 428 هـ)، كتاب النجاة في الحكمة المنطقية والطبيعية والآلهية، القسم الثالث الإلهيات، ص275، ط2، 1357هـ-1938م، طبعة الكردي.

¹⁴ (الغزالي، تهافت الفلاسفة، ص150.

¹⁵ (انظر: التأصيل النقلي لدليل الحدوث وتطبيقه عند المتكلمين من العلماء أبو حنيفة والغزالي أنموذجاً، للباحثين: د. محمد خليل محد النويهي ود. عامر سلامة فلاح الملاحمة، مجلة الزرقاء للبحوث والدراسات الإنسانية -المجلد السادس عشر - العدد الثالث، 2016، المنظومة. انظر: العجيري، عبد الله بن صالح العجيري، شموع النهار، ص95 وما بعدها، ط4، 2020م، تكوين للدراسات والأبحاث. انظر: مركز صناعة المحاور، دلائل أصول الإسلام، ص22.

المطلب الأول: شرح برهان الحدوث

تتحصل حقيقة هذا الدليل في الاستدلال على ضرورة وجود الله بحدوث الكون بجميع مكوناته وأحداثه، فالكون حَدَث من الأحداث وفعل من الأفعال، فلا بد له من مُحدث وفاعل يقوم بإحداثه وفعله وإيجاده من العدم، فكل شيء يحدث بعد أن لم يكن فإنه يجب أن يكون له سبب وفاعل.¹⁶

وهذا الدليل دليل عقلي يقيني، قريب من الفطرة الإنسانية السليمة، والمسلك الاستدلالي الذي يعتمد عليه مسلك برهاني يقيني، وقد عُرف هذا الدليل بالألقاب كثيرة، وسُمي بأسماء متعددة، ومنها: الدليل الكوني، باعتبار أنه يقوم على الاستدلال بحدوث الكون، ومنها: دليل الحدوث، باعتبار أن يقوم الاعتماد على معنى الحدوث والخلق، ومنها: دليل الاختراع، باعتبار أنه يعتمد على معنى الإحداث من العدم، ومنها: دليل الخلق والإيجاد وغير ذلك من الأسماء والألقاب.¹⁷

المطلب الثاني: بيان مقدمات برهان الحدوث، وما فيها من مناقشات فلسفية عقلية.

المقدمة الأولى: العالم حادث، وبرهانها وجود الحوادث.

أولاً: معنى المقدمة وبرهانها.

المقدمة: العالم حادث غير قديم، ومعناها المتبادر للذهن: أن الكون الذي نشهده ونعلمه له بداية في وجوده، فقد كان معدوماً ثم انتقل من العدم إلى الوجود، وصار متصفاً بصفات الوجود بعد أن كان فاقداً لها، والاستدلال بدليل الحدوث على وجود الله تعالى لا يتوقف على إثبات حدوث أصل الكون؛ بل يكفي فيه إثبات بعض الحوادث المشهودة بالأعين كحدوث الإنسان والنبات وغيرهما، وهذه هي طريقة القرآن: سَمَحْ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ سَجَى [الطور: 35] ؛ بل إن هذه الحوادث يمكن أن نستدل بها لإثبات حدوث أصل الكون بطريقة عقلية؛ وهي امتناع تسلسل الحوادث إلى ما لا نهاية، فلا بد لها من محدث أول بالضرورة، فبرهان هذه المقدمة هو ضرورة الحس والمشاهدة، وهو ما أشار إليه الغزالي وابن رشد وابن تيمية والجبّطالي وغيرهم بالنسبة لما يُحس به ويشاهد من الحوادث.

أما حدوث العالم أو الكون: فهو بكل ما فيه مما يمكن أن يتصور وجوده وعدمه، فلا يكون واجب الوجود، بل ممكناً¹⁸، والممكنات حادثة يقيناً؛ إذ هي تقتصر إلى وجود واجب لتكون موجودة.¹⁹ وفي هذا السياق يُفصل الشيخ الجبّطالي باختصار في شرحه للنونية كما

¹⁶ (مركز صناعة المحاور، دلائل أصول الإسلام، ص20 وما بعدها، ط1، 2020م، تكوين للدراسات والأبحاث.

¹⁷ (المرجع السابق، بتصرف.

¹⁸ (الممكن العقلي: هو ما يقبل الوجود والعدم، وكل ما دخل في الوجود وكان معدوماً اسمه ممكن عقلي لأنه قبل أن يكون موجوداً كان معدوماً ثم وجد.

¹⁹ (العجيري، شموع النهار، ص105، بتصرف

سيأتي فيقول جواباً لسؤال السائل: "...قال: فأخبرني عن الأشياء إذ زعمت أنها محدثة مصنوعة، فما الدليل على حدوثها؟ قلنا: وبالله التوفيق، الدليل على ذلك؛ أننا نظرنا إلى ما أدركنا من الأشياء فوجدناه محتملاً للتأليف والتبويض مفتقراً إلى مؤلف ألفها محتاجاً إلى أمور تقوم به بنيته، قلنا: لا يخلو هذا الذي أدركنا منه من أن يكون قديماً أو محدثاً فبطل أن يكون قديماً لما شاهدناه من تعاقب الأعراض عليه من الحركة والسكون، وما فيه من دلائل العجز والافتقار إذ الحركة والسكون وسائر الأعراض حوادث، وما لم يسبق الحوادث فحادث مثله لأنَّ الجسم لا ينفك من حركة وسكون، فلما ظهرت فيه أعلام العجز والافتقار والحدث قضينا على ما غاب عنا منها بما أدركناه لأنَّه مساو له في علته..²⁰

والحواس نواقل معرفية، وليست حاكماً معرفياً؛ فمعرفة الإنسان لحدوث ما حوله، مما يعاين حدوثه، ويدركه بحواسه ضروري، وفي هذا يقول ابن تيمية في درء التعارض: "طريقة الاستدلال بما يشاهد حدوثه قد جاء به القرآن، واتفق عليها السلف والأئمة، ولكن تمشياً مع الضرورة والحس، ولا يحتاج ذلك إلى إقامة دليل على حدوث ما يحدث من الأعيان، بل يستدل بذلك على وجود المحدث تعالى"²¹. وأما المعتزلة فطريقتهم المشهورة في إثبات حدوث العالم وإثبات الصانع هي الاستدلال بإثبات الأعراض أولاً، وإثبات حدوثها ثانياً، وبيان استحالة خلو الجواهر عنها ثالثاً، وبيان استحالة حوادث لا أول لها رابعاً، وقد وافقهم عليها أكثر الأشعرية وغيرهم...²². نخلص من هذا كله أن التشكيك في حدوث ما يُشاهد حدوثه، يفضي إلى سفسطة تتقطع في دهاليزها كل معرفة، ويتساوى فيها الحال بين العاقل والمجنون²³.

ثانياً: أدلة من نازع وشكك في حدوث العالم والرد عليه، إثباتاً لخلقه.

لقد استدل من نازع في حدوث العالم بأدلة عقلية وقد رُد عليها انتصاراً لمبدأ الخالقية لله تعالى وذلك على النحو التالي:

الدليل الأول: استحالة صدور الحادث عن القديم، والرد عليه.

صدور الحادث (العالم) عن القديم (الله) محال، وذلك لضرورة التلازم بين العلة والمعلول، فإذا فرض وجود الله؛ فإما أن يوجد عنه العالم على الدوام فيكون قديماً مثله، وإما أن يتأخر، وهنا إما ألا يتجدد مرجح لوجود العالم فيظل في دائرة الإمكان، وإما أن يتجدد مرجح، فيؤدي إلى إشكال بل جملة إشكالات، ومنها: من محدث هذا الترجيح؟ ولم يحدث الآن، ولم يحدث من قبل طالما أحوال القديم متشابهة منذ الأزل؟ هل ذلك لعجز في الباري أو بتجدد غرض، أو وجدان آلة بعد فقدانها أو تجدد طبيعة أو وقت أو حدوث إرادة لم تكن، وهذا كله محال...

²⁰ (تنمة النص موجودة في نص التحقيق.

²¹ (ابن تيمية، تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم بن محمد ابن تيمية الحراني الحنبلي الدمشقي (ت ٧٢٨هـ)، درء تعارض العقل والنقل، تح: محمد رشاد سالم، ج7، ص223، ط2، 1991م، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، المملكة العربية السعودية.

²² (المرجع السابق، بتصرف.

²³ (العجيري، شموع النهار، ص105، بتصرف.

هذا؛ وقد رد الامام الغزالي على هذا الدليل بأن العالم حدث بإرادة قديمة، اقتضت وجوده في الزمان الذي وجد فيه، وأن يستمر العدم إلى الغاية التي استمر إليها، وأن يبتدئ الوجود من حيث ابتدأ، وأن الوجود قبله لم يكن مراداً، فلم يحدث لذلك، وأنه في وقته الذي حدث فيه مراداً بالإرادة الأزلية.... فما المانع من هذا الاعتقاد وما المحيل عنه؟²⁴.

هذا، وقد أجاب ابن رشد عما ذكره الامام الغزالي؛ بأن الامام الغزالي قد خلط فيه بين الإرادة والفعل عند الفاعل القديم، فتراخي المفعول عن إرادة الفاعل جائز عند الفلاسفة، أما تراخيه عن فعل الفاعل له فهو غير جائز، فهو يقول: "لما لم يمكنه (أي الغزالي) أن يقول بجواز تراخي المفعول عن فعل الفاعل وعزمه على الفعل، إذا كان فاعلاً مختاراً، قال بجواز تراخيه عن إرادة الفاعل، والأخير جائز، أما تراخيه عن فعل الفاعل له فغير جائز، وكذلك تراخي الفعل عن العزم على الفعل في الفاعل المرید فالشك باق بعينه"²⁵، وممدول كلام ابن رشد بحسب ما فهمت: إذا افترضنا أن الله تعالى أراد خلق العالم بإرادة قديمة كما يقول الغزالي اقتضى أن يكون فعله له أزلياً، إذ الإرادة والفعل متقارنان، أو متساويان ضرورة في الزمان لدى الفاعل المطلق القادر على كل شيء، فإذا أثبتنا تراخياً بينهما، كانت ثمة حالة متجددة، أو نسبة لم تكن وذلك ضرورة، إما في الفاعل أو المفعول أو كليهما، فالغزالي أثبت أن الله قد أراد العالم بإرادة قديمة ولا جدال فيه، ولم يثبت أنه فعله بفعل قديم، وهو موضع الخلاف، إذ لا بد من التسليم بأن حالة الفاعل وقت عدم الفعل ليست هي حالته وقت الفعل، فلو سلم بالفعل القديم هذا، للزم عنه قدم العالم، وإلا تجددت في الفاعل حالة ما وهو محال.

الدليل الثاني: قدم الزمان والحركة، والرد عليه.

قالوا بأن تقدم الباري على العالم، إما أن يكون تقدماً بالذات لا بالزمان، كتقدم العلة على المعلول، وتقدم حركة الشخص على حركة الظل التابع له، فيكونان قديمين، وأن أحدهما متقدم على الآخر بالذات، وإما أن يكون الباري متقدماً على العالم بالزمان لا بالذات، فيكون قبل العالم زمان كان العالم فيه معدوماً، فقبل الزمان زمان لا نهاية له، فالزمان قديم، وإذا وجب قدم الزمان، وهو عبارة عن عدد الحركة، وجب قدم الحركة، ووجب قدم المتحرك الذي يدوم الزمان بدوام حركته²⁶.

هذا، وقد رد الامام الغزالي على هذا بقوله: إن الزمان حادث مخلوق ومعنى قدم الله على العالم والزمان، أنه كان ولا عالم معه ثم كان ومعه عالم، فأما المفهوم الثالث وهو الزمان، الذي قال به الفلاسفة فهو من غلط الوهم، لأن الوهم يعجز عن تصور مبدأ إلا مع تقدير قبل، كما يعجز عن تصور تناهي الجسم، فيتوهم أن وراء العالم شيئاً إما خلاء وإما ملاء، أما الفعل فلا يمتنع عليه إدراك²⁷.

الدليل الثالث: قدم الإمكان، والرد عليه.

²⁴ (الغزالي، تهافت الفلاسفة، ص96. بتصرف)

²⁵ (ابن رشد، أبو الوليد محمد بن أحمد بن رشد (ت:595هـ)، تهافت التهافت، دراسة وتعليق: عادل عبد المنعم أبو العباس، ص25-26-27، د.ط، مطابع ابن سينا- القاهرة، بتصرف).

²⁶ (الغزالي، تهافت الفلاسفة، ص110. بتصرف)

²⁷ (المرجع السابق، بتصرف).

العالم قبل وجوده كان ممكناً، إذ لو كان مممتعا لاستحال وجوده أصلاً، وهذا الإمكان لا أول له، أي لم يزل ثابتاً، ولما كان وجود العالم ممكناً، لم يكن مممتعا أبداً... لأننا إذا وضعنا للإمكان أولاً، فقد كان العالم قبل ذلك الإمكان غير ممكن، أي مممتع، فكيف صار من حال الامتناع إلى حال الإمكان؟ أو كيف صار صانعه من حال العجز على حال القدرة؟

هذا، وقد أقر الامام الغزالي أن العالم لم يزل ممكن الحدوث، ولكن لا يلزم عن ذلك أنه موجود أبداً، وإلا لم يكن حادثاً بل قديماً، وهو خلاف المفروض، بأن القديم ليس ممكن الوجود، بل واجبه، والعالم ممكن لا واجب ولا مممتع عند الفلاسفة، فمعنى كونه ممكناً أي لا يتصور وقت غلا ويمكن إحداثه فيه.

المقدمة الثانية: كل حادث لا بد له من محدث.

أولاً: معنى المقدمة، وارتباطها بمبدأ السببية

المراد بها: أن أي فعل يحدث في الوجود فإنه لا بد من فاعل يقوم به ويؤثر في وجوده؛ لأنه يستحيل في المعدوم أن يحدث نفسه أو أن يقع بغير فاعل أو مرجح رجح حدوث الممكن. وهذه المقدمة من أوضح المقدمات، وأجلى المبادئ العقلية الضرورية، فضرورة احتياج الحوادث إلى أسباب مؤثرة مبدأ عقلي ضروري، لا يمكن للعقل الإنساني أن يستمر في التكرار له، أو أن يدوم على تصور نقيضه، فلا يمكن للعقل الإنساني أن يصدق بوجود شيء كان معدوماً بدون أن يكون له فاعل أثر في إحداثه.

الضرورة العقلية في المقدمة الثانية متمثلة في (مبدأ السببية)²⁸، أو ما يسمى ب (السببية العامة)، وهي قضية بديهية ضرورية لا يتصور نقيضها؛ إذ لا يمكن أن يتصور وجود أمر حادث دون تصور سبب أوجب حدوثه.²⁹

يقول الثميني³⁰ في معالمه مؤكداً هذه الحقيقة البديهية: "...اعلم أن لما ثبت بالبرهان الذي لا يشك فيه عاقل منصف أن العالم محدث ومعلوم أن المحدث لا بد له من محدث ضرورة امتناع ترجح أحد طرفي الممكن من غير مرجح كما مر غير مرة..³¹ ويقول الشيخ اطفيش في معرض استدلاله في هذه المسألة: "...العالم لما كان حادثاً استدعى ذلك بالضرورة العقلية أن يكون له محدث، ولا يكون هذا المحدث إلا الله تعالى فالعالم محدث، وكل حادث لا بُدَّ له من محدث، إذن فللعالم محدث³². ويذكر ابن تيمية في الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح أن العلم بهذه الحقيقة هو علم فطري، فيقول: "الْعِلْمُ بِأَنَّ الْمُحَدَّثَ لَا بُدَّ لَهُ مِنْ مُحَدِّثٍ، عِلْمٌ فُطْرِيٌّ

²⁸ (السببية هي العلاقة الثابتة بين السبب والمسبب، وهي مبدأ عقلي أساسه أن لكل ظاهرة سبباً يحدثها، فهو مبدأ قائم على العلاقة التي تجمع بين السبب والمسبب.

²⁹ (العجيري، شموع النهار، ص105. يتصرف

³⁰ (عبد العزيز بن إبراهيم ابن عبد الله بن عبد العزيز الثميني، الملَّقب بـ«ضياء الدين»، (ت: 1223 هـ / 1808 م)، من أعلام الإباضية، من بني يسجن بميزاب، ولد ونشأ بها، وحفظ القرآن ببلده، ثم سافر إلى وارجلان ليدير أملاك والده بها حتى سنِّ الثلاثين، ويقدم الشيخ أبي زكرياء يحيى بن صالح الأفضلي (ت: 1202 هـ / 1787 م) إلى ميزاب عاود الكرة في سبيل العلم، ولازمه في حلقته إلى أن نبغ في علوم اللغة العربية والشريعة والمنطق وغيرها.

³¹ (الثميني، عبد العزيز بن إبراهيم الثميني المصعبي، معالِمُ الدِّين، ج1، ص157، دط، وزارة التراث القومي والثقافة، سلطنة عُمان.

³² (وينتن، مصطفى بن الناصر وينتن، آراء الشيخ أحمد بن يوسف اطفيش العقديّة، ص115، ط1، جمعية التراث. بحث مقدّم لنيل رسالة الماجستير.

صُرُورِي³³، وهي بالتالي قضية لا تقتصر إلى البرهنة والتدليل، بل تُقبل مسلمة؛ لأنها من المدركات الأولية التي تبنى عليها العلوم النظرية.

معلوم أن الضروريات العقلية موضع للاستدلال بها لا الاستدلال لها، وهي تكتسب قطعيتها من فطريتها، وبغير الإقرار بضرورتها فإن المعارف تتسلسل بما يسقط إمكانية تحصيل المعرفة مطلقاً، فلا بد من وجود مسلمات أولية، أو إن شئت فقل معارف قبلية، تنكئ عليها العملية الاستدلالية. ويقول ابن حزم في سياق بيانه للمعارف التي يدركها الإنسان بالبدئية والفطرة: "فمن ذلك علمه بأن الجزء أقل من الكل فإن الصبي الصغير في أول تمييزه إذا أعطيته تمرتين بكى وإذا زدته ثالثة سر وهذا علم منه بأن الكل أكثر من الجزء وإن كان لا يتنبه لتحديد ما يعرف من ذلك ومن ذلك علمه بأن لا يجتمع المتضادان فإنك إذا وقفته قسراً بكى ونزع إلى القعود علماً منه بأنه لا يكون قائماً قاعداً معاً، ومن ذلك علمه بأن لا يكون جسم واحد في مكانين فإنه إذا أراد الذهاب إلى مكان ما فأمسكته قسراً بكى وقال كلاماً مغناه دغني أذهب علماً منه بأنه لا يكون في المكان الذي يريد أن يذهب إليه ما دام في مكان واحد، ومن ذلك علمه بأنه لا يكون الجسمان في مكان واحد فإنك تراه يُنازع على المكان الذي يريد أن يقعد فيه علماً منه بأنه لا يسعه ذلك المكان مع ما فيه فيدفع من في ذلك المكان الذي يريد أن يقعد فيه إذا يعلم أنه ما دام في المكان ما يشغله فإنه لا يسعه وهو فيه..."³⁴

ومن أبرز وأهم تلك المعارف القبلية الضرورية هو (مبدأ السببية)، ومن الطريف أن العملية الاستدلالية ذاتها تقتصر إلى تسليم بهذه الضرورة العقلية؛ فالصلة والعلاقة بين الدليل والمدلول محكومة بهذا القانون؛ إذ الدليل سبب في حصول العلم بالمدلول، فمجرد محاولة التدليل على بطلان مبدأ السببية عند المخالف هنا هو اعتراف به من حيث لا يشعر.³⁵

يقول ابن تيمية، موضحاً شديد عمق تأثير هذا المبدأ في تكوين العقل البشري: "ومعلوم بالفطرة التي فطر الله عليها عباده بصريح العقل أن الحادث لا يحدث إلا بمحدث أحدثه، وإن حدث الحادث بلا محدث أحدثه معلوم النبطان بضرورة العقل وهذا أمر مركز في بني آدم حتى الصبيان، لو ضرب الصبي ضربة فقال: من ضربني؟ فقيل: ما ضربك أحد، لم يصدق عقله أن الضربة حدثت من غير فاعل. ولهذا لو جاز مجوز أن يحدث كتابة أو بناء أو غراس ونحو ذلك من غير محدث لذلك، لكان عند العقلاء إما مجنوناً وإما مسفهاً كالمُنكر للعلوم البديهية والمعارف الضرورية..."³⁶. وقد أحسن الغزالي في الاقتصاد حين قال في معرض حديثه عن

³³ (ابن تيمية، أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم بن محمد ابن تيمية الحراني الحنبلي الدمشقي (ت ٧٢٨هـ)، الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح، تح: علي بن حسن - عبد العزيز بن إبراهيم - حمدان بن محمد، ج3، ص202، ط2، 1999م، دار العاصمة، السعودية.

³⁴ (ابن حزم، أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي القرطبي الظاهري (ت ٤٥٦هـ)، الفصل في الملل والأهواء والنحل، ج1، ص11-12، ب.ط، مكتبة الخانجي - القاهرة.

³⁵ (العجيري، شموع النهار، ص106. بتصرف.

³⁶ (ابن تيمية، الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح، ج3، ص203.

مبدأ السببية: "إن هذا الأصل يجب الاقرار به، فإنه أولي ضروري في العقل، ومن يتوقف فيه فإنما يتوقف لأنه ربما لا ينكشف له ما نريده بلفظ الحادث، ولفظ السبب، وإذا فهمهما صدق عقله بالضرورة بأن لكل حادث سبباً"³⁷

ومع كل ما تقدم نزيد القول فنقول بناءً على ما تقدم: ما من موجود يظهر للوجود إلا وله علة رجحت وجوده على عدمه، ويستحيل أن تكون هذه العلة المرجحة عدماً محضاً؛ فإن عدم ليس بشيء، ولا يتصور أن يصدر عنه شيء؛ إذ فاقد الشيء لا يعطيه.

كما يتمتع أن يكون الشيء نفسه علة في وجود نفسه؛ فإن الشيء إذا كان معدوماً امتنع أن يكون علة في وجود غيره، فضلاً عن أن يكون علة في وجود نفسه. ولو قدرنا أن المرجح للوجود هو ذات الشيء، فهو دليل على كون هذا الشيء هو واجب الوجود، وهو ما لا يتصور عدمه؛ فكون الشيء حادثاً بعد عدم يستحيل معه أن يكون واجب الوجود... إذ كون الشيء ممكن الوجود واجباً ممتنع عقلاً؛ لما فيه من الجمع بين النقيضين.³⁸

فلم يبق لنا إلا أن نقول: إن علة حدوث الشيء = أمر وجودي خارج عن الشيء، وهو المطلوب.

وبناءً على المقدمتين، فيجب أن يكون ثمة وجود واجب أزلي قديم، وهو سبب حدوث تلك الحوادث والممكنات. والدليل على كون هذا السبب واجباً لا ممكن الوجود: أننا وإن قدرنا أن الحادث له سبب، وأن لهذا السبب سبباً؛ فإنه يلزمنا قطع سلسلة الأسباب إلى سبب أول لا يفترق إلى سبب، إذ التسلسل في العلل ممتنع عقلاً، إذ هو يفضي إلى امتناع حدوث ذلك الحادث المعين.³⁹ وبغض النظر عن تعقد شبكة الحوادث والأسباب، وصلة بعضها ببعض، فلا بد أن ترجع تلك الأسباب إلى سبب أول أحدث ما وراءه من أسباب، وبغير هذا التصور فإن شبكة الأسباب تلك لا يمكن أن تكون موجودة.

ولتوضيح المسألة أكثر هناك مثال لطيف مشهور معروف وهو مثال الجندي والرصاص، الجندي يريد أن يطلق النار، ولكن حتى يطلق النار يجب على الجندي أن يستأذن من الجندي الذي هو أعلى منه مرتبة، وهذا الجندي حتى يعطي الإذن يجب أن يستأذن من الجندي الذي أعلى منه مرتبة، وهكذا إلى ما لا نهاية، السؤال: هل سيطلق الجندي النار؟ الجواب: لا؛ لأنه لن يصل إلى الجندي الذي سيعطيه الإذن بإطلاق النار، أما إذا انتهت السلسلة إلى شخص لا يوجد أحد أعلى منه مرتبة ليعطيه الإذن بإطلاق النار، فستطلق الرصاصة، وبدون هذا الشخص، ومهما كثر عدد الأشخاص، لن تتطلق الرصاصة؛ فهم كالأصفار إذا وضعتها بجانب بعضها البعض، فمهما كثرت وبلغت حداً لا نهاية له، فستظل لا تساوي شيئاً، إلا أن يوضع قبلها رقم: واحد أو أكثر.

³⁷ (الغزالي، أبو حامد محمد بن محمد الغزالي الطوسي (ت ٥٠٥هـ)، الاقتصاد في الاعتقاد، ص 25، ط 1، 2004م، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان.

³⁸ (العجيري، شموع النهار، ص 107. بتصرف

³⁹ (العجيري، شموع النهار، ص 108. بتصرف

ولا يحل المشكلة هنا قول بعض الملاحدة: (الكون عبارة عن دائرة كبرى من الحياة)، فمحاولة إيجاد حل للمأزق بجعل الكون نظاماً مغلقاً، وأن شبكة العلاقات المعقدة بين الأسباب والمسببات يحل مأزق الحدوث دون افتقار إلى سبب أول، وأنه وإن كان كل سبب له سبب، لكن العلاقة بينها أشبه بالسلسلة المغلقة، والتي يلتقي طرفاها لتشكّل دائرة، لا يفيد شيئاً. مع هذا كله وإن أفضى التصور الأول إلى التسلسل في العلل، وهو ممتع؛ فإن هذا يفضي إلى الدور القبلي⁴⁰، وهو ممتع كذلك.⁴¹

المبحث الرابع: الأدلة والشواهد العلمية على حدوث العالم.

إن العقل المبني على دلالة الحس الضرورية يدل على حدوث العالم، ويشهد بأن له بداية محتومة، فإن العلم التجريبي في تطوراتهِ الحديثة يؤكد في عدد من اكتشافاته المتأخرة أن العالم حادث، وقد تضافرت مقالات عدد كبير من العلماء التجريبيين مع اختلاف اختصاصاتهم واهتماماتهم العلمية على تأكيد هذه الحقيقة، وتوسعوا في شرحها وانسجامها مع مقتضيات العلم التجريبي الحديث وتطوراتهِ، وأضحت قضية حدوث العالم من القضايا المستقرة في كتابات كثير منهم. وفي بيان ذلك ينقل لنا كتاب دلائل أصول الإسلام مقالة العالم الفيزيائي المعاصر بول ديفيز (Paul Davies) من كتابه القوى الأربعة الأساسية في الكون ما نصه: "...أهم اكتشاف علمي في عصرنا هذا هو أن الكون المادي لم يكن موجوداً أبداً"، ويقول عالم الكيمياء جون كليفلاند كوثران (John Cleveland): "تدلنا الكيمياء، على أن بعض المواد في سبيل الزوال أو الفناء، ولكن بعضها يسير نحو الفناء بسرعة كبيرة والآخر بسرعة ضئيلة، وعلى ذلك فإن المادة ليست أبدية، ومعنى ذلك أيضاً أنها ليست أزلية، إذ أن لها بداية...". والإقرار بحدوث الكون، ليس خاصاً بالعلماء المؤمنين؛ بل أقر بذلك عدد من العلماء الملحدين، ومن أشهرهم: ستيفن هوكينج (Stephen Hawking): "ومع تراكم الدليل التجريبي والنظري، أصبح من الواضح أكثر وأكثر أن الكون لا بد له بداية في الزمان، حتى تمت البرهنة على ذلك نهائياً في 1970م"⁴²، ومن الشواهد العلمية على حدوث العالم ما يلي:

أولاً: قانون الديناميك الثاني

ومن أهم الشواهد العلمية التي يعتمد عليها العلماء في إثبات حدوث الكون: قانون الديناميك الثاني، والذي يعني: أن الطاقة الحرارية لا تنتقل إلا من الأجسام الحارة إلى الأجسام الأقل منها حرارة، ولا يمكن أن يحدث العكس، وهذا يدل على أن الطاقة في الكون لا تسير إلا في اتجاه واحد فقط، وهو الانتقال من الأعلى حرارة إلى الأقل حرارة.⁴³

⁴⁰ (الدور القبلي: وهو أن يكون الشيء محتاجاً إلى شيء آخر ويكون ذلك الشيء الآخر محتاجاً إلى من احتاج إليه. أو يقال: أن يكون (أ) فاعلاً ل(ب)، و(ب) فاعلاً ل(أ). مثل: أن يقع زيد وعمرو في البحر، فيكون زيد محتاجاً إلى عمرو في نجاته، وعمرو محتاجاً إلى زيد في نجاته. وهذا الدور لا يمكن أن يتحقق في الواقع، فزيد لا يمكن أن ينقذ عمراً وعمرو لا يمكن أن ينقذ زيدا.

⁴¹ (العجيري، شموع النهار، ص109. بتصرف)

⁴² (مركز صناعة المحاور، دلائل أصول الإسلام، ص23-24، بتصرف. انظر: القوى الأربعة الأساسية في الكون. انظر: الله يتجلى في عصر العلم. انظر: تاريخ موجز للزمان.

⁴³ (المرجع السابق.

وفي الاستدلال بهذا القانون على حدوث الكون، وبيان وجه دلالته، يقول عالم الطبيعة البيولوجي فرانك ألين (Frank Allen): "قوانين الديناميكا الحرارية تدل على أن مكونات هذا الكون تفقد حرارتها تدريجياً، وأنها سائرة حتماً إلى يوم تصير فيه جميع الأجسام تحت درجة من الحرارة بالغة الانخفاض، وهي الصفر المطلق، ويومئذ تنعدم الطاقة، وتستحيل الحياة، ولا مناص من حدوث هذه الحالة من انعدام الطاقات عندما تصل درجة حرارة الأجسام إلى الصفر المطلق بمضي الوقت، وأما الشمس المستعرة، والنجوم المتوهجة، والأرض الغنية بأنواع الحياة، فكلها دليل واضح على أن أصل الكون أساسه يرتبط بزمان، بدأ من لحظة معينة، فهو إذن حدث من الأحداث، ومعنى ذلك: أنه لا بد لأصل الكون من خالق أزلي، وليس له بداية، عليم محيط بكل شيء، قوي ليس لقدرته حدود، ولا بد أن يكون هذا من صنع يديه".⁴⁴ وقد أقر برتراند راسل (Bertrand Russell) وهو من أعمدة الإلحاد بأن قانون الديناميك الحراري يدل على حدوث الكون، ولكنه سعى إلى التقليل من أهمية دلالاته على ضرورة وجود الخالق وحاول تغيير القارئ من الاعتماد عليه.⁴⁵

ثانياً: نظرية الانفجار العظيم

ومن الشواهد العلمية التي اعتمد عليها العلماء في إثبات حدوث الكون: قضية الانفجار العظيم⁴⁶ بكل مكوناته، وهي نظرية ضخمة، واسعة الأرجاء، كثيرة التفاصيل، ولكن حاصلها الذي يهمنا في هذا الموضوع: أن العالم خرج إلى الوجود نتيجة انفجار عظيم حدث قبل أكثر من خمسة عشر ألف مليون سنة، تشكلت من خلالها جميع أجزاء الكون المكونة لهيكله. وقد أضحت نظرية الانفجار العظيم -مع أنها ما زالت نظرية ظنية- من أوسع الشواهد العلمية التي يعتمد عليها العلماء في إثبات حدوث الكون، وتعد هذه النظرية الدليل الأقوى الذي اعتمد عليه العالم الفيزيائي الملحد ستيفن هوكنج في إثبات حدوث الكون، فإنه شرح تفاصيل تلك النظرية ورصد الأدلة الدالة عليها وأكد ثبوتها وأقر بموجبها في إثبات حدوث الكون صراحة.⁴⁷

يعد قانون الديناميكا الحراري، ونظرية الانفجار العظيم من أعظم الكوارث العلمية التي نزلت كالصاعقة على عقول الناقدين للآديان؛ ولأجل هذا استماتوا في التكرار لها، وفي الاعتراض عليها... الذي يهمنا في هذا المقام أنها دليل علمي ينبئنا أن للكون بداية، سمحاً مَنْ يَبْدُوَ الْخَلْقُ ثُمَّ يُعِيدُهُ سَجَى [النمل: 64] ليس قديماً.

⁴⁴ (المرجع السابق، ص25، للمزيد انظر: الله يتجلى في عصر العلم.

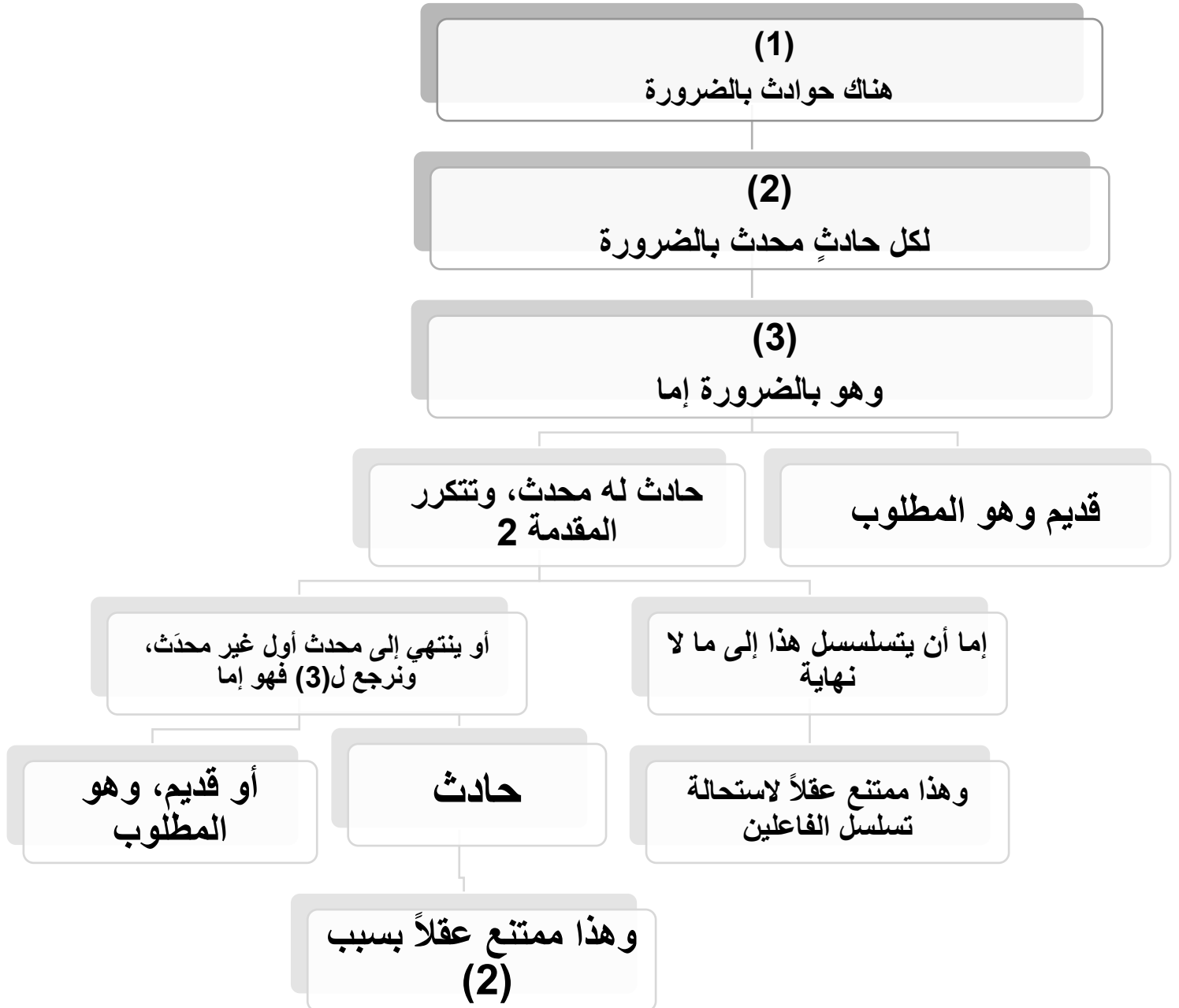
⁴⁵ (المرجع السابق، ص26، للمزيد انظر: نظرة علمية ص107-109.

⁴⁶ (نظرية يتبناها كل أعلام علم الكونيات اليوم، وتتص على أن كوننا قد بدأ بانفجار عظيم حدث منذ قرابة 14 بليون سنة، وبهذا لانفجار ظهر المكان ومعه الزمان.

⁴⁷ (المرجع السابق، ص26-27، للمزيد انظر: في شرح تفاصيل هذه النظرية: تاريخ موجز للزمن من الانفجار العظيم إلى الثقوب السوداء، ستيفن هوكنج، ص106-110. انظر:

القوى الأربعة الأساسية في الكون، بول ديغيز، ص118-223.

نختصر المقال السابق ونللمه بهذا التشجير:



الخاتمة:

في ختام البحث نلخص أهم ما جاء فيه في النقاط التالية:

1. إن برهان الحدوث عند المتكلمين من الأدلة العقلية التي سبقت لإثبات وجود الله تعالى؛ من أجل هذا اهتم المتكلمون بهذا الدليل.
2. يعد برهان الحدوث عند المتكلمين من الأدلة العقلية التي لها أصول نقلية من كتاب الله تعالى وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم.
3. عُرف هذا البرهان بألقاب كثيرة، وسُمي بأسماء متعددة، ومنها: الدليل الكوني ودليل الحدوث، ودليل الاختراع، ودليل الخلق والإيجاد وغير ذلك من الأسماء والألقاب.
4. وضع المتكلمون لبرهان الحدوث مقدمتين أساسيتين، ونتيجة لازمة عنهما حال التسليم بصدقهما. المقدمة الأولى: أن العالم حادث من العدم وليس قديماً. والمقدمة الثانية: أن الحادث لا بد له من محدث. النتيجة الضرورية: العالم لا بد له من محدث.
5. المقدمة الأولى (العالم حادث) نازع في صدقها خلق كثير، أشهرهم فريقان: بعض الفلاسفة، وبعض المتكلمين من علماء المسلمين.
6. الضرورة العقلية في المقدمة الثانية متمثلة في (مبدأ السببية)، وهي قضية بدئية ضرورية لا يتصور نقيضها؛ إذ لا يمكن أن يتصور وجود أمر حادث دون تصور سبب أوجب حدوثه.
7. وبناءً على المقدمتين، فيجب أن يكون ثمة وجود واجب أزلي قديم، وهو سبب حدوث تلك الحوادث والممكنات.
8. العلم التجريبي في تطوراتهِ الحديثة يؤكد في عدد من اكتشافاته المتأخرة أن العالم حادث.
9. أهم الشواهد العلمية التي يعتمد عليها العلماء في إثبات حدوث الكون: قانون الديناميك الثاني، ونظرية الانفجار العظيم.

قائمة المراجع:

- 1- ابن دريد؛ محمد بن الحسن: **جمهرة اللغة**، باب الدال والقاف مع ما بعدهما من الحروف، مادة قدم، تحقيق: رمزي كنير بعلبكي، دار العلم للملايين، بيروت، 1987م.
- 2- ابن منظور، محمد بن مكرم بن علي، أبو الفضل، جمال الدين ابن منظور الأنصاري الرويفي الإفريقي (ت ٧١١هـ)، لسان العرب، مادة قدم، ج12، ص465، ط3، 1414هـ، دار صادر - بيروت.
- 3- ابن سينا، أبو علي الحسين بن عبد الله بن سينا (ت: 428 هـ)، **كتاب النجاة في الحكمة المنطقية والطبيعية والالهية**، القسم الثالث الالهيات، ط2، 1357هـ-1938م، طبعة الكردي.
- 4- ابن رشد، أبو الوليد محمد بن أحمد بن محمد بن أحمد بن رشد القرطبي الشهير بابن رشد الحفيد (ت ٥٩٥هـ)، **تهافت التهافت**، دراسة وتعليق: عادل عبد المنعم أبو العباس، د.ط، مطابع ابن سينا- القاهرة.
- 5- ابن رشد، أبو الوليد محمد بن أحمد بن محمد بن أحمد بن رشد القرطبي الشهير بابن رشد الحفيد (ت ٥٩٥هـ)، **فصل المقال**، تح: محمد عمارة، دار المعارف.
- 6- الزبيدي، محمد مرتضى الحسيني الزبيدي، **تاج العروس من جواهر القاموس**، تحقيق: جماعة من المختصين، دار الهداية، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب بدولة الكويت، د.ط، د.ت.
- 7- الرازي، زين الدين أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الحنفي الرازي (ت ٦٦٦هـ)، **مختار الصحاح**، تح: يوسف الشيخ محمد، ط5، ١٤٢٠هـ / ١٩٩٩م، المكتبة العصرية - الدار النموذجية، بيروت - صيدا
- 8- الغزالي، أبو حامد محمد بن محمد الغزالي الطوسي (ت ٥٠٥هـ)، **المستصفى**، تح: محمد عبد السلام عبد الشافي، دار الكتب العلمية، ط1، 1993م.
- 9- الغزالي، أبو حامد محمد بن محمد الغزالي الطوسي (ت ٥٠٥هـ)، **محك النظر في المنطق**، تح: أحمد فريد المزيدي، ب.ط، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان.
- 10- الغزالي، أبو حامد محمد بن محمد الغزالي الطوسي (ت ٥٠٥هـ)، **معيير العلم في فن المنطق**، تح: الدكتور سليمان دنيا، د.ط، دار المعارف، مصر.
- 11- القرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي شمس الدين القرطبي (ت ٦٧١هـ)، **الإعلام بما في دين النصارى من الفساد والأوهام وإظهار محاسن الإسلام**، تح: د. أحمد حجازي السقا، ب.ط، دار التراث العربي - القاهرة.
- 12- العجيري، عبد الله بن صالح العجيري، **شموع النهار**، ط4، 1441هـ/2020م، تكوين للدراسات والأبحاث، المملكة العربية السعودية.

- 13- ابن تيمية، تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم بن محمد ابن تيمية الحراني الحنبلي الدمشقي (ت ٧٢٨هـ)، *درء تعارض العقل والنقل*، تح: محمد رشاد سالم، ط2، 1991م، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، المملكة العربية السعودية.
- 14- الشهرستاني، أبو الفتح محمد بن عبد الكريم بن أبي بكر أحمد الشهرستاني (ت ٥٤٨هـ)، *الملل والنحل*، د.ط، مؤسسة الحلبي.
- 15- الغزالي، أبو حامد محمد بن محمد الغزالي الطوسي (ت ٥٠٥هـ)، *تهافت الفلاسفة*، تح: د. سليمان دنيا، ط6، 1431هـ، دار المعارف، القاهرة - مصر.
- 16- الجابري، محمد عابد الجابري، *تهافت التهافت*، ط1، 1998م، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت.
- 17- الخليلي، أحمد بن محمد بن سليمان الخليلي، *برهان الحق*، 2017، الكلمة الطيبة، مسقط، سلطنة عمان.
- 18- الثميني، عبد العزيز بن إبراهيم الثميني المصعبي، *معالم الدين*، ج1، ص157، د.ط، وزارة التراث القومي والثقافة، سلطنة عُمان.
- 19- مصطفى بن الناصر وينتن، *آراء الشيخ أحمد بن يوسف الطفيش العقديّة*، ط1، جمعية التراث. بحث مقدّم لنيل شهادة الماجستير.
- 20- ابن تيمية، أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم بن محمد ابن تيمية الحراني الحنبلي الدمشقي (ت ٧٢٨هـ)، *الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح*، تح: علي بن حسن - عبد العزيز بن إبراهيم - حمدان بن محمد، ط2، 1999م، دار العاصمة، السعودية.
- 21- ابن حزم، أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي القرطبي الظاهري (ت ٤٥٦هـ)، *الفصل في الملل والأهواء والنحل*، ب.ط، مكتبة الخانجي - القاهرة.
- 22- الغزالي، أبو حامد محمد بن محمد الغزالي الطوسي (ت ٥٠٥هـ)، *الاقتصاد في الاعتقاد*، ط1، 2004م، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان.
- 23- التأصيل النقلي لدليل الحدوث وتطبيقه عند المتكلمين من العلماء أبو حنيفة والغزالي أنموذجاً، للباحثين: د. محمد خليل محد النويهي ود. عامر سلامة فلاح الملاحمة، مجلة الزرقاء للبحوث والدراسات الإنسانية - المجلد السادس عشر - العدد الثالث، 2016، المنظومة.
- 24- وينتن، مصطفى بن الناصر وينتن، *آراء الشيخ أحمد بن يوسف الطفيش العقديّة*، ص115، ط1، جمعية التراث. بحث مقدّم لنيل رسالة الماجستير.
- 25- التأصيل النقلي لدليل الحدوث وتطبيقه عند المتكلمين من العلماء أبو حنيفة والغزالي أنموذجاً، للباحثين: د. محمد خليل محد النويهي ود. عامر سلامة فلاح الملاحمة، مجلة الزرقاء للبحوث والدراسات الإنسانية - المجلد السادس عشر - العدد الثالث، 2016، المنظومة.

